



بعض مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية لمدينة تاكوست خلال القرن 16م

عبد الهادي المدن
طالب باحث في التاريخ
جامعة ابن زهر اكدير

- ملخص المداخلة:

ركز عبد الهادي المدن في مداخلته على بعض النصوص التي أوردها بعض الرحالة عن مدينة تاكوست خاصة محمد حسن الوزان الذي رصد مجموعة من التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية مبينا مدى الدور الذي لعبته المدينة في تاريخ وادي نون خاصة في عهد المرينيين والسعديين والعلويين وقد سايره في هذا الشأن مكل من ابن سعيد وابن خلدون و مارمول كربخال .

وتأتي أهمية وادي نون الإستراتيجية بالنسبة للصحراء من خلال موقعها في الطريق الساحلية الرابطة بين تارودانت و أوليل مما أكسب قبائل المنطقة مجموعة من الممارسات التجارية ، وكانت من محصلات هذا التراكم ظهور مدينة تاكوست كحاضرة تجارية في المغرب الصحراوي . وقد تم في هذا الباب استثمار موقعها الجغرافي القريب من جبال الأطلس الصغير حيث كانت تستخرج بعض أنواع المعادن التي تستثمر في صناعة الحلي وضرب السكة ، وقد مكنها موقعها الجغرافي أيضا من توفرها على أراضي خصبة مما مكنها من تراكم إنتاج فلاحي وحيواني وفير. كما أن انفتاح المنطقة على المجال الصحراوي جعلها تنفتح أوتوماتيكيا على الطرق التجارية الصحراوية خاصة منها الساحلية .

وقد ساهم موقعها التجاري في خلق طفرة اقتصادية حسب شهادات المصادر التاريخية التي تحدثت عن الفترة .

وقد تطرق محمد حسن الوزان إلى ازدهار التجارة في المدينة أثناء مقامه بها ، عبر التجار المحليين وتجار من الصحراء والسودان الغربي و شنقيط ، كما تم الحديث عن وجود ملاح لليهود في المدينة .

وقد عرفت الحياة الاجتماعية في المدينة طفرة كبيرة ، حسب مشاهدات حسن الوزان ، ذلك أن مجتمع تاكوست كان صورة مصغرة لمجتمع وادي نون ، ذلك أن الدينامية القبلية بين الجنوب والمنطقة خلقت حركة اجتماعية كبيرة أدت إلى خلق تكتلات اجتماعية ستؤدي فيما بعد إلى ظهور التكتل القبلي المعروف باسم قبائل تكنة بقطبيها أيت بلا و أيت الجمل . كما تحدث الوزان عن مظاهر الرفه الاجتماعي في تاكوست من خلال عادات الناس في التفنن في اللباس الذي يضي رونقا وجمالا على نساء المدينة .



- المداخلة:

تقديم :

تشكل في السنين الأخيرة مشروع طموح لثلة من الباحثين -سواء من داخل واد نون أو من خارجه- يهدف إلى كتابة تاريخ شمولي للمنطقة، ويرصد جل التفاعلات الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والدينية . وقد تعددت الأساليب والمناهج لتحقيق هذا الهدف ، فهناك من حاول الاشتغال على المنطقة بشكل موسع، وهناك فئة حاولت تجزيء المجال والاشتغال بمنهج المنوغرافيات .

ولعل من الوسائل التي ستشكل نقلة نوعية في هذا المشروع الجاد، تنظيم ندوات وأيام دراسية تجمع الباحثين للتدارس وتبادل الخبرات ،هذا ما من شأنه الدفع بعجلة البحث إلى الأمام .وفي هذا السياق تأتي ندوة تاكوست .

برزت هذه المدينة التاريخية التي لعبت أدوارا هامة خاصة على المستوى الاقتصادي ، كعنصر فاعل في منطقة واد نون ،وفي التاريخ المغربي بشكل عام منذ القرن 14م خاصة في العهد المريني، السعدي والعلوي.

وصلتنا معلومات تاريخية هامة عن المدينة وخاصة عند ابن سعيد (ق 13) ،كما نجد بعض الإشارات عند ابن خلدون(14) ،ولعل أهم المعلومات هي التي قدمها حسن الوزان في مؤلفه وصف إفريقيا، إضافة إلى المعلومات التي قدمها مارمول كربخال في كتابه إفريقيا . هذه الكتابات التاريخية كشفت لنا بعض الجوانب من تاريخ المدينة في انتظار أن تكشف الجوانب الأخرى بظهور وثائق محلية أو أبحاث اركيولوجية.

نهدف من وراء هذه المداخلة الى تسليط الضوء على بعض الجوانب من تاريخ المدينة، خاصة الجانب الاقتصادي والاجتماعي ،باعتبارهما الجانبان الأكثر اهمية ،وقد ربطنا بين موقع تاكوست الاستراتيجي ،وبين بروزها كقوة اقتصادية مهمة في منطقة واد نون والصحراء.

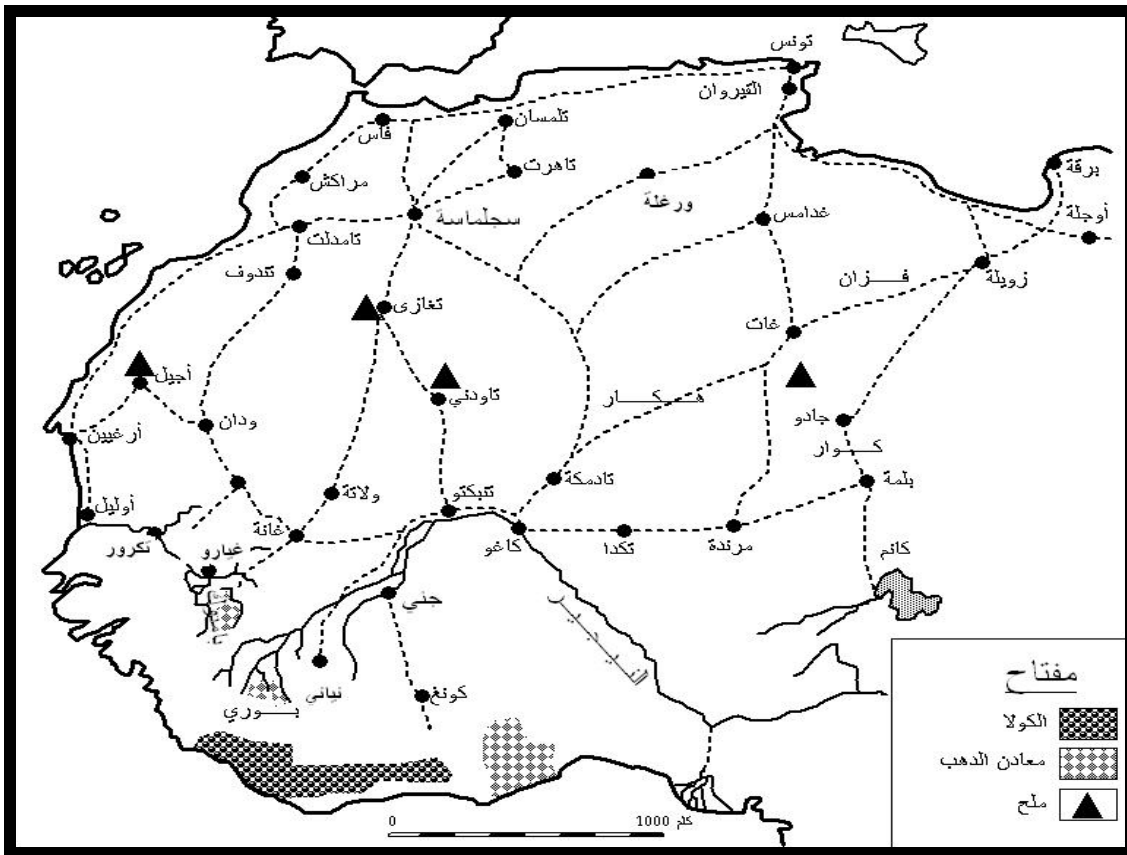
ولا نخفيكم أن البحث في هذا الموضوع يحتاج إلى وقت اكبر والى إمكانيات اوفر، كما يحتاج الى مادة وثائقية عز وجودها في تاريخ المغرب الوسيط والحديث، وهذه المداخلة ليست الا مدخل او محاولة اثارة بعض النقاط التي سنعمل على دراستها مستقبلا.



1- دور الموقع في الاقتصاد التاكوستي

لا يمكن تحديد أهمية موقع مدينة تاكوست في منطقة وادي نون¹، ودوره في أهميتها الاقتصادية، ما لم نتعرف على هذا المجال العام. فلمنطقة وادي نون ذات أهمية إستراتيجية باعتبارها أول الصحراء، وقد استفادت من معطيات بيئية لتفرز لنا منطقة حضرية خصبة ومنفتحة، وبالتالي منطقة هامة لمرور القوافل والبضائع خاصة عبر الطريق الساحلي الرابط بين تارودانت و أوليل .

الطرق التجارية الصحراوية ما بين القرن 10 و 19م



Mustapha Naimi, Wad Nun, La Dybamique Des Alliances Sahariennes, centre Tarik Ibn Zyad, Juin 2005, P21 (بتصرف)

المصدر:

كما عرف مجال تحركات قبلية الذاهبة من الجنوب باتجاه الشمال والعكس، وقد تحدث البعض عن رحلتي الشتاء والصيف بحثاً عن الكأ والعشب، كما عرفت المنطقة تحركات ذات الصبغة السياسية أو ذات الصبغة التجارية².

استفادت مدينة تاكوست من هذا الواقع التاريخي الاقتصادي الناتج عن تفاعل بشري مجالي، خاصة مع الخبرة التجارية التي اكتسبتها القبائل المستقرة بالمنطقة كقبيلة جزولة و لمطة اللتان انخرطتا في العملية

¹ - بلاد نون أو وادي نون كما تنطق اليوم، المنطقة الممتدة من إقليم اكدير و بها يمر نهر نون الذي يحمل اسمها، وهذا الوادي ينبع من جبال الواقعة خلف قرية الايدالة (تايدالت) ويصب في المحيط الأطلسي. محمد لمراني، مقال "الدور السياسي والاقتصادي لمنطقة وادنون في القرن الخامس عشر"، ضمن ندوة واحات وادي نون، منشورات كلية الآداب اكدير، أعمال ندوة 9-10-11 نونبر 1995، الطبعة الأولى 1999، ص 18.

² - نفسه، ص 25.



التجارية، إما كتجار كبار يلعبون دور الوساطة بحكم أنهم أرباب نعم جزيلة وأموال جلييلة تجار مياسير حسب عبارة البكري، أو كرجال امن لمرافقة القوافل و حراستها والسهر على راحتها في محطات مخصصة لهذا الغرض متوفر على خدمات متنوعة (تقديم الماء و المؤونة).

هذا الواقع افرز لنا مدينة تاكوست كعاصمة من العواصم الجنوبية التي عرفت ازدهارا كبيرا خاصة في عهد المرينيين والسعديين واستمر نشاطها إلى عهد العلويين³.

2- الحياة الاقتصادية

أكدت الكتابة التاريخية على أن الدور الاقتصادي من بين الأدوار الهامة التي لعبتها مدينة تاكوست، فقد زاوجت المدينة بين النشاط الفلاحي والتجاري إضافة إلى أنشطة أخرى، مما جعلها تعرف ازدهارا ملحوظا. ويعد ابن سعيد في كتابه الجغرافيا أول من أورد ذكر هذه المدينة خلال القرن السابع (13م)، كما أنها لفتت مدينة تاكوست انتباه ابن خلدون الذي اعتبرها عاصمة سوس الأقصى، وأشار إلى سوقها الهام المزدهر. وتبقى أهم هذه الإشارات ما سجله حسن الوزان في كتابه "وصف إفريقيا" وما أتى به مارمول كربخال في كتابه "إفريقيا".

● الفلاحة:

تمتعت مدينة تاكوست بمعطيات بيئية متمثلة في خصوبة الأراضي ووفرة المياه، فقد أشار الوزان إلى أهمية هذا العامل الذي تمتعت به المدينة، مما انعكس إيجابا على الواقع الفلاحي الذي تميز بوفرة المنتجات الفلاحية والحيوانية بأثمان بخسة، حيث يقول «وتعتبر الأراضي الزراعية في هذه الناحية خصبة للغاية والماشية وفيرة وبيع الصوف فيها بثمن بخس⁴» كما نجد معلومات هامة أوردها كربخال حول أهمية المواد الفلاحية من قمح وماشية «وبالبلاد كلها غنية بالقمح والماشية⁵» هذه الوضعية الفلاحية المتميزة ساهمت في الرفاه الاقتصادي والتوسع الحضري للمدينة. إذ شملت اكوس (واعرون الحالي) وتسكنان و مداشر أخرى تشهد مخلفاتها على حجم واسع الانتشار⁶.

● التجارة:

لعبت مدينة تاكوست بفضل موقعها الاستراتيجي كحلقة وصل بين ضفتي الصحراء – والذي ورثته بعد تدهور نول لمطه- دور الوساطة التجارية، وكانت محطة هامة توفر مختلف الخدمات للقوافل التجارية العابرة لواد نون (الماء، الأمن)، إضافة إلى المنتجات سواء الفلاحية كما أسلفنا الذكر بوجود قطيع مهم ومتنوع من الماشية (ابل، ماعز، أغنام) ومنتجات كالصوف الذي يباع بثمن بخس. كما أشار الوزان إلى أهمية السوق الذي يقام

³- نقوي، أيت لحسن، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2007، ص 87.

⁴-حسن الوزان وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت 1983، ص 157.

⁵-مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، مطابع المعارف الجديدة، 1988-1989، ص 38.

⁶- مصطفى ناعمي، مادة تاكوست، معلمة المغرب، الجزء 6، مطابع سلا 1413-1992، ص 2086.



بالمدينة مرتين في الأسبوع، مما يدل على ازدهار التجارة و أضاف الوزن أن « الصوف [يباع] بثمن بخس، يصنع منه قطع قماش صغيرة يحملها تجار إلى تومبوكتو وإلى ولاته وإلى السودان مرة في العام⁷». و أضاف كربخال أن السوقين «يقصدهما أعراب المنطقة وبربرها ويأتي إليها التجار من بلاد الزنوج ليشتروا ثيابا غليظة من صنع أهل البلاد وهي ضيقة لغاية⁸». من خلال هذه المعلومات يتضح الدور التجاري الهام للمدينة، التي كانت لها علاقاتها تجارية ممتدة في عمق الصحراء لتصل إلى تومبوكتو ولاته، وقد انعكس هذا الواقع إيجابا على المدينة إذ «فيها الكثير من دكاكين الباعة والصناع وسط المدينة⁹» إلى درجة تخصيص حي بأكمله مكون من «ما يزيد عن ثلاثمائة منزل لليهود الصناع والتجار الذين يعيشون في حي منعزل¹⁰»، هذا دون إغفال الأدوار التجارية اللاحقة التي لعبتها خاصة بعلاقتها مع جزر الكناري. وتجلت أهمية تاكوست في كونها أصبحت في النصف الأول من القرن 16م القاعدة الأولى لتجارة الرقيق كما يؤكد ذلك حسن الوزان متبوعا بمرمول وكاستيو¹¹.

● الحياة الاقتصادية العامة:

تمثل الفلاحة والتجارة جانبا من الحياة الاقتصادية العامة المنسجمة للمدينة، فقد عرفت ادوار أخرى يمكن وصفها بالخدمائية "كالخفارة" أي حراسة القوافل، هذه "الوظيفة" التي مارستها قبائل وادنون منذ لمطه، مما اكسبها شهرة حربية أعطتها حق الخفارة على مختلف المسالك الأطلسية إلى حدود مقطر Maqtier على مقربة من ادرار¹². وهذه الوضعية ستستمر مع القبائل اللاحقة خاصة المعقليين. واشتهرت المراكز الوادنونية فضلا عن ذلك، بادوار صناعية والتي تميزت بها على خلاف المراكز التجارية ببلاد شنقيط وبلاد السودان التي تكتفي بالوظيفة، فكانت تقوم "بصناعات تحويلية" تعتمد على الصوف لحياكة الملابس، كما اشتهرت بتحويل المنتجات الحيوانية والسودانية إلى سلع، معتمدة على فئتي الصناع واليهود المنظمين في دكاكين خاصة وسط المدينة ولهم حي منعزل مكون من ثلاثمائة منزل.

3- الحياة الاجتماعية:

● الواقع الاجتماعي في مدينة تاكوست:

⁷- الوزان، م س، ص 157.

⁸- كربخال، م س، ص 38-39.

⁹- الوزان، م س، ص 157.

¹⁰- كربخال، م س، ص 38.

¹¹- ناعمي، المعلمة، م س، ص 2087.

¹²- مصطفى ناعمي، الصحراء من خلال بلاد تكنة، مطابع عكاظ الرباط، 1988، ص 40.



يعتبر المجتمع التاكوستي صور مصغرة للمجتمع في منطقة واد نون . خضعت بنيته لمقاييس ومعطيات عديدة أثمرت عليها وأثرت فيها تبعاً لتعاقب وكثافة الأحداث . فالموقع الاستراتيجي للمنطقة جعلها مسرحاً للتحركات الاجتماعية الذاهبة من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب ، هذه الدينامية جعلت التعرف على الوضع الاجتماعي داخل المدينة أمراً صعباً، فالتداخل بين مكونات بشرية فرض نفسه بشكل كبير خاصة إذا ما أردنا استحضار البعد الديني / الاجتماعي . لذلك فلا يمكن إعطاء الخريطة المجتمعية في تاكوست إلا ابتداء من النصف الثاني للقرن الأول الهجري ، وهي الفترة التي وصل فيها الفتح الإسلامي لمنطقة شمال إفريقيا بشكل عام وبلاد المغرب الأقصى على وجه الخصوص¹³ .

أولى الإشارات التي وصلتنا عن مدينة تاكوست ما أورده ابن سعيد الذي اعتبرها قاعدة اكزولن، فقبيلة كزولة أو جزولة كانت القبيلة المسيطرة في المنطقة كجزء من البنية العامة الصنهاجية التي أسست واستقرت في العديد من المراكز الحضرية في واد نون¹⁴ . ورغم أن الغزو الموحيدي خلال سنوات 553-555-1158م والانتشار المعقلي¹⁵ قد اخل بهذا الانسجام المجتمعي وخلق تحولات عميقة في بنية الساكنة وهي تحولات لم تغب عن بال البكري(ق 5هـ) والإدريسي(ق 6هـ)¹⁶ . هذا الواقع الجديد تحدث عنه ابن خلدون والبيدق، وأشار إليه حسن الوزان إذ أشار إلى أن سكان المدينة «ينقسمون إلى ثلاث أحزاب تتصارع فيما بينها في معظم الأحيان، وقد استدعى احد الأحزاب العرب لنجدته ضد الحزب الآخر ، وهؤلاء العرب يقدمون عونهم تارة لهذا وتارة لذاك حسب الإمدادات التي ينالونها من أي جانب»¹⁷ نفس المعلومات أوردها كربخال -الذي من المؤكد أخذ عن الوزان - حيث ذكر أن السكان دائماً على أهبة القتال. لكن رغم هذا فان المصالح الاقتصادية كانت لها الكلمة العليا في هذا الواقع المتميز بالعنف، إذ تم إنشاء تنظيمات اجتماعية واقتصادية تجسد فعاليتها المراكز التجارية الكبرى تم تضيي عليها طابع الاستمرارية¹⁸ .

• ملامح ازدهار المجتمع التاكوستي:

ساهم الواقع الاقتصادي المزدهر في الرفاه الاجتماعي بمدينة تاكوست ، فأوصاف حسن الوزان لساكنة المدينة تبين بجلاء هذه الرفاهة في العيش إذ « يرتدي أهل تاكوست ثياباً لائقة والنساء جميلات جداً ولطيفات¹⁹ » ، كما

¹³-محمد المراني ، واحات واد نون، م س، ص 20.

¹⁴- من المراكز الحضرية هناك :نول لمطة عاصمة قبيلة لمطة، كوكدم عاصمة قبيلة مسوفة، ازريقي عاصمة قبيلة لمتونة ،تغيرا عاصمة قبيلة كدالة، انظر

لمراني ، م س، ص 22-23

¹⁵-من المرجح أن يكون بنو الأحمر من سيطروا على تاكوست ، هؤلاء الذين يتلقون الدعم المادي من سكان المجال ويتنقلون باستمرار إلى منطقة وادنون

ويتعدى عدد مقاتليهم ثمانية آلاف مقاتل حسب ما أورده الوزان

¹⁶-نقوري ادريس، م س، ص 99.

¹⁷- الوزان، م س، ص 157.

¹⁸-نعيمي ،الصحراء من خلال بلاد تكنة، م س ، ص 31.

¹⁹-الوزان ، م س، ص 175.



اعتنى السكان بلباسهم الى درجة وصفهم كربخال بال"متعجرفين". وقد كانت هذه الخاصية مميزة كفاية لتلفت انتباههما . ولعل اتساع المدينة إلى حدود مجاليه هامة تشمل اكوس(واعرون الحالي) وتسكنان و مداشر أخرى ،إلى أن بلغ عدد منازلها ثمانية آلاف منزل دليل على ازدهار المدينة على كافة المستويات.

خاتمة

من خلال النقاط التي تناولناها نتضح الأهمية الكبرى لمدينة تاكوست، كعاصمة من عواصم الجنوب، لعبت أدوارا اقتصادية هامة بل تجاوزتها لتلعب أدوارا اجتماعية وثقافية، باعتبارها صلة وصل بين الثقافة المغربية القادمة من الشمال والثقافة الصحراوية الإفريقية القادمة من الجنوب، فكان المجتمع التاكوستي خليطا منسجما من اثنيات متنوعة.

ورغم يبقى العثور على وثائق جديدة مسألة ملحة، ستساهم في المزيد من تسليط الضوء على تاريخ المدينة، سواء عن علاقاتها بسوس أو الصحراء أو السودان الغربي، كما قد تفسر علاقاتها المحلية داخل واد نون، وستجيب عن بعض التساؤلات والنقاط التي مازالت بحاجة إلى البحث كعلاقاتها بالبرتغاليين و الكناريين فيما بعد، وعن طبيعة الانتقال من المدن الوسيطة الى واحات.

لائحة المصادر والمراجع

- حسن الوزان وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية
- مارمول كربخال ، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي واخرون، مطابع المعارف الجديدة، 1988-1989.
- مصطفى ناعمي ، الصحراء من خلال بلاد تكنة، مطابع عكاظ الرباط، 1988
- مصطفى ناعمي، مادة تاكوست، معلمة المغرب، الجزء 6، مطابع سلا 1413-1992.
- ندوة واحات واد نون ، منشورات كلية الآداب اكادير، أعمال ندوة 9-10-11 نونبر 1995، الطبعة الأولى 1999
- إدريس النقوري ، أيت لحسن، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2007.
- Mustapha Naimi, Wad Nun, La Dybamique Des Alliances Sahariennes , centre Tarik Ibn Ziyad, Juin 2005